الجـزء الثـالث

موسى وشعبه والديانة التوحيدية

-١-

ملحوظات استهلالية كتبت قبل مارس سنة ١٩٣٨ (فيينا)

إننى بإقدام الشخص الذى ليس لديه مايفقده أو لديه القليل، أقترح خرق قرار كان له مايبرره - خرقه للمرة الثانية - وأن أعقب مقالىَّ الاثنين عن موسى (Imago, Bd XXIII, Heft 1 and 3) بالجزء الأخير الذى حجبته عن النشر حتى الآن، وكنت قد قلت عندما أنهيت المقال الأخير أنى أعرف جيداً أن قواى لن تكفى المهمة. وكنت بالطبع أشير إلى الضعف الذى يطرأ على قواى الإبداعية والذى يصاحب الشيخوخة[١]. ولكن هناك كذلك صعوبة أخرى، فنحن نعيش فى زمن نابه جداً، ونجد فى دهشة أن التقدم قد عقد تحالفاً مع البربرية. وفى روسيا السوفيتية بُذلت المحاولة لتحسين الحياة لمائة مليون من الناس كانوا واقعين حتى الآن تحت المصادرة، وكانت السلطات من الجرأة بحيث سلبتهم مخدر الدين، ومن الحكمة بحيث منحتهم قدراً معقولاً من الحرية الجنسية، ولكنها أخضعتهم رغم ذلك لأقسى أنواع القهر، وسلبتهم كل إمكانية حرية التفكير. وبوحشية مماثلة يُدرِّب الشعب الإيطالى على النظام ومعنى الواجب[٢]. وكان ثُقلا حقيقيا تخفّف منه القلب، أن نجد فى حالة الشعب الألمانى، أن النكوص إلى كل شئ إلا بربرية ماقبل التاريخ يمكن أن يمر

١- لاأشارك معاصرى الموهوب برناردشو الرأى أن البشر يمكن أن يحققوا شيئاً له قيمته إذا استطاعوا أن يصلوا مجرد وصول إلى سن ثلاثمئة سنة، فمع مجرد إطالة فترة الحياة لايمكن تحصيل شئ مالم تتغير كذلك الكثير من ظروف الحياة تغييراً جذرياً. (فرويد)

وبرنادر شو هو الكاتب الأيرلندى (١٨٥٦ - ١٩٥٠) المسرحى الساخر الذى كتب نحو ٤٠ مسرحية اتسمت باللوذعية الشديدة والمفارقات الباهرة والحوار الذكى، وهو اشتراكى ومن مؤسسى الجمعية الفابية الاشتراكية، ومن رأيه أن الفلاسفة يجب أن يحكموا العالم، وأنهم لايجب أن يحكموه قبل سن ٣٠٠ سنة، وكان يرى أنه إذا أراد أن يعيش هذا العمر فالأمر متوقف على إرادته، لأن الحياة عنده إرادة كما كان يرى الفيلسوف برجسون. (الحفنى)

٢- يقصد المفهوم الفاشى للواجب فى ظل فاشية موسوليني. (الحفنى)

مستقلاً عن أى فكرة تقدمية. وليكن مايكون، فإن الحوادث قد اتخذت اليوم مساراً حتى باتت الديمقراطيات المحافظة هى الراعية للتقدم الثقافى، وقامت مؤسسة الكنيسة الكاثوليكية للغرابة الشديدة، بمقاومة شديدة ضد الخطر الذى يتهدد الثقافة. هذه الكنيسة الكاثوليكية التى كانت حتى الآن العدو المتشدد لكل حرية للفكر، والتى عارضت بتصميم أى فكرة لهذا العالم يحكمها مقدماً الاتجاه إلى إقرار الحقيقة!

ونحن نعيش هنا فى بلد كاثوليكى وتحت حماية هذه الكنيسة، ولانعرف على وجه اليقين كم تطول الحماية[1]. وطالما هى مستمرة أتردد بالطبع فى أن أفعل أى شئ من شأنه أن يوقظ عداء تلك الكنيسة. إنه ليس الجبن، ولكنه الحذر. إن العدو الجديد[2] - وسأحاذر أن أفعل أى شئ من شأنه أن يخدم مصالحه - أخطر من القديم الذى تعلمنا أن نعيش معه فى سلام. وتنظر الكاثوليكية على أى حال إلى بحوث التحليل النفسى باهتمام متشكك. ولا أقول إن التحليل النفسى لايستحق هذا التشكك. **فإذا كان بحثنا يؤدى إلى نتيجة تقلل من الدين وتجعله فى مستوى مرض العصاب النفسى الذى يصيب الإنسانية وتفسر قواه العظيمة بنفس الطريقة التى نفسر بها الهواز العصابى الذى يصيب أفراد مرضانا**[3]، فإن لنا أن نتأكد أننا سنستجلب أكبر السخط من السلطات القائمة. وليست المسألة أن لدى أى شئ جديد أريد أن أقوله، فليس لدى شئ لم أعبر عنه بوضوح منذ ربع قرن مضى. ومع ذلك فقد تنوسى كل ذلك، ولاشك أنه سيكون له بعض الأثر لو أعدت قوله الآن وصوّرته بمثال على غرار الطريقة التى تؤسس عليها الديانات. وقد تؤدى إلى منعنا من مزاولة التحليل النفسى. ولكن مثل هذه الطرق العنيفة للكبت ليست غريبة كلية على الكنيسة الكاثوليكية، وهى تحس كما لو كان هذا تدخلا فى امتيازاتها عندما يلجأ الناس الآخرون إلى نفس الوسائل. ومع ذلك فالتحليل النفسى، الذى سافر إلى كل مكان خلال رحلة عمرى الطويلة، لم يجد بعد بيتاً خدوما أكثر من المدينة التى ولد بها ونما.

١- يقصد حياته فى النمسا حيث تسيطر الكنيسة الكاثوليكية فى الثلاثينات، وكان فرويد قد هاجر إلى لندن سنة ١٩٣٨ هربا من امتداد النفوذ النازى إلى النمسا من بعد. (الحفنى)

٢- النازية. (الحفنى)

٣- يعترف فرويد صراحة بأن التحليل النفسى الفرويدى ضد الدين، وأنه يعامل المتعصب دينياً كالمريض بالعصاب. (الحفنى)

وإنى لاأظن ذلك فقط، ولكن أعلم أن هذا الخطر الخارجى سيمنعنى من نشر الجزء الأخير من بحثى عن موسى. وحاولت أن أرفع هذه العقبة بأن أقول لنفسى أن خوفى يقوم على مغالاة فى التقدير لأهميتى الشخصية، وأن السلطات لن تبالى تماما لما سأقوله عن موسى وعن أصل الديانات التوحيدية[1]. ومع ذلك لاأحس أنى متأكد أن حكمى على صواب. ويبدو لى أكثر احتمالا أن الحقد وشهوة الإثارة سيعوضان الأهمية التى تنقصنى فى أعين العالم. ومن ثم فلن أنشر هذا المقال. ولكن ذلك لاينبغى أن يمنعنى من كتابته. وخاصة طالما أنه كتب من قبل، منذ سنتين، ولايحتاج لذلك إلا لإعادة الكتابة والإضافة إلى المقالين الاثنين السابقين. ومن ثم فقد يظل مخفيا حتى يحين الوقت عندما يجرؤ على الظهور فى أمان إلى نور النهار، أو حتى يمكن أن يقال لشخص ماآخر يصل إلى نفس الآراء والنتائج :«فى الأيام الأظلم عاش رجل فكّر كما فكّرت».

✠ ✠ ✠

-٢-

يونيو سنة ١٩٣٨ (لندن)

إن المصاعب الضخمه بدرجة غير عادية والتى أثقلت علىّ خلال تأليفى لهذا المقال عن موسى - والتى هى عبارة عن شكوك داخلية، وكذلك معوقات خارجية - هى الأسباب التى أدّت إلى أن يكون لهذا الجزء الثالث والأخير مقدمتان مختلفتان يعارض كل منهما الآخر، بل والواقع أن أحدهما يلغى الآخر. وذلك لأنه فى الفترة القصيرة بين كتابة المقدمتين تغيرت الظروف الخارجية للمؤلف تغييراً جذريا. فلقد عشتُ فيما سبق فى حماية الكنيسة الكاثوليكية، وخشيت إنْ أنا نشرت المقال أن أفقد تلك الحماية، وأن يُمنع الممارسون والدارسون للتحليل النفسى فى النمسا من ممارسة عملهم. ثم فجأة أطْبَق الغزو النازى علينا وأثبتت الكاثوليكية كما يقول الإنجيل أنها «قصبة مكسورة». وعندما تحصّل لى اليقين أنى مضطهد - الآن ليس بسبب عملى وحده ولكن بسبب «جنسى اليهودى»[2] أيضا - غادرت مع عدد كبير من الأصدقاء المدينة التى كانت بيتاً لى منذ طفولتى الباكرة وخلال ثمانى وسبعين سنة[3].

١- تتهافت نظريته فى أصل الديانات بمجموعة التناقضات التى يتردى فيها والتى نبهنا لها فى حينها. (الحفنى)

٢- يتحدث فرويد عن اليهودية هنا باعتبارها جنسا race وليست ديانة. (الحفنى)

٣- هذا الفصل ومابعده كتبه فرويد فى لندن بعد هربه من النمسا خوفا من الحكم النازى المعادى لليهود.(الحفنى)

ووجدت أحّر الترحيب فى انجلترا الجميلة الحرة الكريمة. وهنا أعيش الآن، ضيفاً معزّزاً قد أُعفيت من ذلك الاضطهاد، وأمارس حياتى سعيداً لأنى قد أتحدث مرة أخرى وأكتب وأكاد أقول «أفكر» كما أريد أو كما ينبغى. وإنى لأجرؤ الآن أن أنشر الجزء الأخير من مقالى.

ولم تعد هناك معوقات خارجية أو على الأقل لايوجد منها شئ إطلاقا مما يمكن أن يصيب الإنسان بالذعر. وفى الأسابيع القليلة من إقامتى تلقيت عدداً كبيراً من التحّيات، من أصدقاء عبّروا لى عن بالغ سرورهم لرؤيتى هنا، ومن أناس لاأعرفهم، وليس لهم اهتمام يذكر بعملى، ولكنهم عبروا تعبيراً بسيطا عن رضاهم لأنى قد عثرت على الحرية والأمن هنا. وبالإضافة إلى كل ذلك وصلتنى خطابات من نوع آخر، بكثرة محيّرة للأجنبى، تعبر عن قلقها تجاه ماتراه لصالحى الروحى ورغبتها الدافقة فى هدايتى إلى طريق المسيح وإلى إنارتى حول مستقبل شعب إسرائيل. وإن الناس الطيبين الذين كتبوا هكذا لم يكن فى وسعهم أن يعرفوا الكثير عنى - وإنى لأتوقع على ذلك أنه عندما ينيع هذا العمل الجديد لى بين مواطنّى الجدد سأفقد من مراسلى ومن عدد من الآخرين شيئا من التعاطف الذى يشملونى الآن به.

أما الصعوبات الداخلية فإن النظام السياسى المختلف والوطن الجديد لن يغيرا منها، فالآن كما فى الماضى أحس بالقلق عندما يواجهنى عملى، وأفتقد الإحساس بالوحدة وبالتآلف اللذين ينبغى أن يتواجدا بين المؤلف وبين عمله. وهذا لايعنى أن الاقتناع بصواب نتائجى ينقصنى، فذلك الاقتناع حزتُه منذ ربع قرن مضى عندما كتبت كتابى «الطوطم والمحرم» Totem and Taboo (سنة ١٩١٢) واستمر يقوى، ومنذ ذلك الحين لم أشك فى أن الظواهر الدينية لاتُفهم إلا على منوال المظاهر العصابية للفرد، والتى اعتدنا، جدا، على أنها بمثابة رجوع لأحداث هامة، قد عفى عليها النسيان طويلا، من التاريخ البدائى للأسرة الإنسانية، وأنها مدينة بهذه الصفة العَصَرية إلى ذلك الأصل نفسه، ومن ثم فهى تستمد تأثيرها فى البشرية من الحقيقة التاريخية التى تحتوى عليها[1]. ولايبدأ عدم يقينى إلا عند النقطة التى أسائل فيها نفسى عما إذا كنت قد نجحت فى إثبات ذلك

١- هذا رأى فرويد فى أصل الدين وقد طرحه فى كتابه الطوطم والمحرم بشكل أكثر تفصيلا. (الحفنى)

فى حالة التوحيد اليهودى الذى اخترته هنا. ويبدو لقواى النقدية أن هذا المبحث، وقد بدأ من دراسة موسى الإنسان، كما لو كان راقصا يقف متوازنا على إصبع واحد، وإذا لم يكن بوسعى أن أجد التأييد فى التفسير التحليلى لأسطورة التعرض للماء وأعبر منها إلى اقتراح سيلين المتعلق بنهاية موسى، فإن المبحث كله كان من الواجب أن يظل دون كتابة. ومع ذلك دعونى أبدأ.

إننى أبدأ بأن أستخلص نتائج مقالى الثانى عن موسى، وهى نتائج تاريخية محضة. ولن أفحصها فحصا نقدياً طالما أنها مقدمات للمناقشات السيكولوجية التى تقوم عليها والتى تحيل إليها باستمرار.

* * *

القســـم الأول

-١-

المقدمات التاريخية

إن الخلفية التاريخية للأحداث التى أثارت اهتمامنا هى كالتالى : صارت مصر من خلال فتوحات الأسرة الثامنة عشرة إمبراطورية عالمية. وانعكست الإمبريالية الجديدة فى تطور بعض الأفكار الدينية، فإن لم يكن التطور فى أفكار الشعب كله، فعلى الأقل فى أفكار الطبقة العليا الحاكمة والفعّالة ثقافياً. وتحت تأثير كهنة إله الشمس فى أتون (هليوبوليس)، والذى ربما قوّته أفكار مصدرها آسيا، قامت هناك فكرة **إله عالمى** -الإله أتون - ولم تعد الفكرة مقصورة على شعب واحد وبلد واحد. واعتلى الفرعون الشاب أمنحوتب الرابع العرش (الذى غيّر اسمه فيما بعد إلى أخناتون) ولم يولِ شيئا عناية أكبر من عنايته بتطوير فكرة هذا الإله، ورفع من شأن ديانة أتون فأصبحت الديانة الرسمية، وبذلك صار الإله العالمى هو **الإله الوحيد**، ووصف كل ما كان يقال عن الآلهة الأخرى بأنه غش وخداع، وقاوم بصلابه هائلة كل مغريات الفكر السحرى ونبذ الوهم الأثير بصفة خاصة للمصريين - نبذ هذا الوهم والفكر الذى يقول بحياة بعد الموت، وكشف بتنبؤ رائع عن المعرفة العالمية اللاحقة فى طاقة الإشعاع الشمسى كمصدر لكل حياة على الأرض، وعَبَدَ الشمس كرمز لقوة هذا الإله الذى آمن به، وتمّجد بفرحته بالخَلْق وفى حياته فى الماعت (الحقيقة والعدل).